

المداهنة

عناصر الموضوع

١٦٦	مفهوم المداهنة
١٦٧	المداهنة في الاستعمال القرآني
١٦٨	الأنفاظ ذات الصلة
١٧٠	أنواع المداهنة
١٨٦	أسباب المداهنة المشروعة
١٩٤	أسباب المداهنة المحرمة

مفهوم المداھنة

أولاً: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: « (دهن) الدال والهاء والنون أصلٌ واحدٌ يدل على لين وسهولة وقلة، من ذلك الدهن. ويقال: دهنته دهنًا. والدهان: ما يدهن به. قال الله عز وجل: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالْذَهَبِ﴾ [الرحمن: ٣٧]. قالوا: هو دردي الزيت. ومن الباب الإدهان، من المداھنة، وهي: المصانعة. وتقول: داهنت الرجل، إذا داريته وأظهرت له خلاف ما تضرمر له، وهو من الباب، كأنه إذا فعل ذلك فهو يدهنه ويسكن منه^(١).

ويمكن إلحاق المداھنة والإدهان بأصل الباب الذي يدل على اللين والسهولة والقلة؛ لأن المداھن إنما هو في الحقيقة وفي موقفه هذا يواجه صعوبة وصلابة في التعامل مع المداھن مما يضطره إلى سلوك اللين والسهولة في الكلام معه، حتى يتقي شر من يداھنه، أو تحقيقاً لمصلحة له عنده، والله أعلم.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «المداھنة هي أن ترى منكراً وتقدر على دفعه ولم تدفعه حفظاً لجانب مرتكبه أو جانب غيره أو لقلة مبالاة في الدين»^(٢). ويقول القرطبي: «هي معايشة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، مع القدرة»^(٣).

ويقول القاضي عياض: «المداھنة: إنما هي إعطاءً بالدين ومصانعةً بالكذب، والتزيين للقيح، وتحويب الباطل للوصول إلى أسباب الدنيا وصلاحها»^(٤).

(١) مقاييس اللغة، ١/ ٢٣١.

(٢) التعريفات، الجرجاني ص ٩٠.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ٦/ ٥٧٣.

(٤) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم ٨/ ٢٧٣.

المداهنة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (دهن) في القرآن الكريم (٥) مرات^(١).
والصيغة التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]
الاسم	١	﴿فِيهِذَا لَلْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١]

وجاءت المداهنة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: المصانعة والمداراة والملاينة^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٦٤.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣٠٨/٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٦١٢/٢، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٢٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢٩/٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ التقية:

التقية لغة:

مصدر تقي. والتقية: الخشية والخوف. وتقية: مصدر اتقى، يتقي، اتقاءً وتقاةً وتقيةً، فهو متقٍ، والمفعول متقى. واتقى الله: صار تقياً وخاف منه فتجنب ما نهى عنه وامتنل لأوامره. واتقى الشيء بكذا: حذره وتجنبه. وكان يتقي شره: يتجنب شره، يحذره. واتقى بالشيء: جعله وقاية له وحماية من شيء آخر. والجمع: تقيون وأتقياء. والتقي: من يتقي الله تعالى، ويخاف منه ويمتنل لأوامره والجمع: أتقياء^(١).

التقية اصطلاحاً:

هي تجنب العدو بإظهار ما يوافقه مع إضمار ما يخالفه من عقيدة ونحوها، وهو واجب في موارد محددة^(٢).

وعرفها السرخسي بقوله: «التقية أن يقي الإنسان نفسه بما يظهره وإن كان يضمّر خلافه»^(٣).

وعرفها ابن حجر بقوله: «التقية الحذر من إظهار ما في النفس من معتقدٍ وغيره للغير»^(٤). والتعريف الأول أشمل؛ لأنه يدخل فيه التقية بالفعل إضافة إلى التقية بالقول والتقية في العمل كما هي في الاعتقاد.

الصلة بين التقية والمداهنة:

التقية لا تحل إلا لدفع الضرر، أما المداهنة فلا تحل أصلاً، لأنها اللين في الدين وهو ممنوع شرعاً^(٥).

والتقية يصاحبها العجز وعدم القدرة على دفع المنكر، من ثم كانت حلالاً. بينما المداهنة تحصل مع القدرة على إنكاره ومن ثم كانت حراماً.

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١٠٥٢/٢.

(٢) معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء، سامي الصلاحات ص ٧٠.

(٣) المبسوط ٤٥/٢٤.

(٤) فتح الباري ٣١٤/١٢.

(٥) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٨٦/١٦.

المدارة لغة:

يقول ابن فارس: « الدال والراء والحرف المعتل (الياء) أصلان: أحدهما: قصد الشيء واعتماده طلباً، والآخر حدة تكون في الشيء »^(١).

قال ابن منظور: « والمدارة في حسن الخلق والمعاشرة مع الناس يكون مهموزاً وغير مهموز، فمن همزه كان معناه الاتقاء لشره، ومن لم يهمزه جعله من داريت الظبي أي: احتلت له، وختلته حتى أصيده »^(٢).

المدارة اصطلاحاً:

قال الحافظ ابن حجر: المدارة: هو بغير همز بمعنى: المجاملة و الملاينة، وأما بالهمز فمعناه المدافعة^(٣).

والمقصود من المدارة: ملاينة الناس ومعاشرتهم بالحسنى من غير ثلم في الدين من أي جهة من الجهات^(٤).

الصلة بين المدارة والمداينة:

يوضح القرطبي محل الفرق بين المداينة والمدارة بقوله: « والفرق بين المدارة والمداينة، أن المدارة: بذل الدنيا لصالح الدنيا أو الدين، وهي مباحة ومستحسنة في بعض الأحوال، والمداينة المذمومة المحرمة: هي بذل الدين لصالح الدنيا »^(٥).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢٣١/١.

(٢) لسان العرب، ٢٥٥/١٤.

(٣) فتح الباري ٢٥/٩.

(٤) روضة العقلاء، ابن حبان ٥٦.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥٧٣/٦.

أنواع المداينة

ظهر لنا فيما سبق أن مصطلح المداينة يجوز التعبير عنه لغةً بألفاظٍ مرادفةٍ له كالمدارة والمجاملة والتقية.. ونحوها. ومن هنا درج على السنة بعض علماء الإسلام المشهورين استعمال لفظة المداينة موصوفةً بالحمد وبالذم.

ومنهم الإمام القرافي صاحب أنوار البروق في أنواع الفروق: حيث وضع فيه ترجمةً بعنوان: «الفرق الرابع والستون والمائتان بين قاعدة المداينة المحرمة وبين قاعدة المداينة التي لا تحرم، وقد تجب»^(١).

ومن منظور آخر نجد القرآن الكريم قد حكى مصطلح المداينة مذمومًا مطلقًا بينما حكايته عن مفهوم المداينة جاءت على معانٍ أوسع ودلالاتٍ أبعد من حكايته له كمصطلح، ومن ثم جاء بعضها محمودًا كالتيقة، والإكراه مثلاً، وبعضها الآخر مذمومًا كالركون إلى الكفار ونحوه.

ويمكن تقسيم المداينة إلى نوعين:

أولاً: المداينة المشروعة:

ونقصد بالمداينة المشروعة هنا المداراة التي هي محل اتفاق بين العلماء على جوازها. والأدلة على مشروعيتها في القرآن

الكريم كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَا أُولَ الَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ قَوَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

فقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ جاءت في سياق ما أمر الله به في كل شريعة من الشرائع، من عبادته سبحانه وحده، والإحسان إلى الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين. وختمت الآية بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. «وهذه الشرائع من أصول الدين التي أمر الله بها في كل شريعة لاشتمالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾»^(٢).

ويقول القرطبي في تفسيره: «ينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليتاً، ووجهه منبسطاً طلقاً مع البر والفاجر، والسيء والمبتدع، من غير مداينة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون،

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧.

(١) الفروق، القرافي ٤/ ٢٣٧.

منصبيهما أمرا بالرفق واللين مع فرعون. وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم مأمور بالرفق وترك الغلظة.

يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِّ لَهُمْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويقول تعالى أيضًا: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدَاً يَبْغِرُ عَلَيْهِمُ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. (٤)

وقال أهل التحقيق: كلام الناس مع الناس إما أن يكون في الأمور الدينية، أو في الأمور الدنيوية، فإن كان في الأمور الدينية، فإما أن يكون في الدعوة إلى الإيمان، وهو مع الكفار، أو في الدعوة إلى الطاعة وهو مع الفاسق. والدعوة إلى الإيمان لا بد وأن تكون بالقول الحسن، كما قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام في دعوتهما لفرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ [طه: ٤٤].

مع نهاية كفر فرعون وتمرده وعتوه على الله سبحانه، وكذلك دعوة الفساق فالقول الحسن فيها معتبر كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ الآية.

وأما في الأمور الدنيوية؛ فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض بالتلفظ من القول الحسن لم يحسن سواه.

(٤) مفاتيح الغيب ١٥٣/٣.

وانظر: المداراة في الاسلام، وليد السعد ص ١١.

وقد أمرهما الله تعالى باللين معه» (١).

والقول الحسن؛ أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيب. ولذلك فإن من أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيها في أقواله وأفعاله غير فاحش ولا بذيء ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق واسع الحلم مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر ربه ورجاء ثوابه ومغفرته (٢).

وعن عطاء قال: قوله عز وجل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: الناس كلهم؛ المشرك وغيره. وعن هشام بن عروة قال: عطس نصراني طيب عند أبي، فقال له: رحمك الله. فقيل له: إنه نصراني، قال أبي: رحمة الله على العالمين (٣).

ولقد اختلف العلماء في وجوب القول الحسن. هل هو مع المؤمنين، أو مع الكفار والفساق؟ وهل هو خاص في الدعوة إلى الله، أو أنه يشمل الناس جميعاً، فبقي على عمومته ولا يحتاج إلى التخصيص؟ والصواب أنه باقٍ على ظاهره ولا حاجة إلى التخصيص. والدليل عليه، أن موسى وهارون - عليهما السلام - مع جلال

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧، ٥٨.

(٣) مداراة الناس، ابن أبي الدنيا ص ٩٥.

فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخله تحت قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(١).

وقال تعالى في قصة ابراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

وإبراهيم عليه السلام كان من أكثر المناوئين له أبوه وقومه عند دعوته لهم إلى عبادة الله وحده لا يشركون به شيئاً، وقد لاقى في ذلك عتناً شديداً، وحرَجاً بليغاً لوقوف أبيه مع المشركين ضد دعوته، حتى قال له أبوه يوماً: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْفِي مَلِكًا﴾ [مريم: ٤٦].

فاستوحش إبراهيم عليه السلام من موقف أبيه آزر، ولكنه أبقى على شيء من البر له عندما ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَفَقًا إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيَّا﴾ [مريم: ٤٧].

غير أن هذا الموقف اللين لم يغير شيئاً من موقف أبيه واستمر في عدائه لدعوته. عندها خشي عليه السلام أن ينقلب موقفه من أبيه وقومه من مفهوم المدارة إلى مفهوم المداهنة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ

إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

تبين له من جهة الوحي أن أباه لن يؤمن، وأنه يموت كافراً. فانقطع رجاؤه عنه، فقطع استغفاره له. وهكذا يجب أن يكون موقف الداعية المؤمن من المناوئين لدعوته، صبراً على الأذى، وليناً في الخطاب، ووضوحاً في البيان، والتذكير، والوعد، والوعيد. حتى إذا سدت المنافذ في وجهه، واستحكم الهوى على عقل عدوه، وأظهر مقاومة شرسة، تركه وما أراد، فقد أعذر إلى الله، وبرئت ذمته، وأقام الحجة على عدوه.^(٢)

وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أمر الله سبحانه نبيه بمكارم الأخلاق. فأمر أمته بنحو ما أمره الله به. ومحصلها، الأمر بحسن المعاشرة مع الناس، وبذل الجهد في الإحسان إليهم، والإغضاء عنهم. عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ الآية ما نزلت إلا في أخلاق الناس، وعنه أيضاً «قال: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس»^(٣).

(٢) المدارة وأثرها في العلاقات الاجتماعية بين الناس، محمد بن سعد ص ١٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير،

(١) مفاتيح الغيب، ٨٣/٣.

كُنْتُ قَطًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تَقْضُوا مِنِّي حَوْلًا فَأَعَفَ عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتُ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والذي يفهم من هذا الخطاب الكريم، أن الأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم فيه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب. فإذا كان هذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أليس من الواجب علينا الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله لدين الله (٣).

وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَنَّاتٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

وموقف يوسف عليه السلام مع إخوته الذين اتهموه بالسرقة واتهموا شقيقه في قولهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ كان موقفاً حكيماً، يتسم صاحبه ببعد النظر وقوة الإرادة من التحكم في النفس

فهذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، هو ما سمحت به نفوسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق فلا يكلفوا بما لا تسمح به طبائعهم، أو الشاق من الأخلاق، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن ضعفهم، ونقصهم وأخطائهم، فلا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال، وتنشرح له صدورهم (١). وفيها دلالة واضحة أيضاً على المداراة وهو قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِالْعَرَفِ﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك؛ إما تعليم علم، أو حثاً على خير من صلة رحم، أو بر والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو زجر عن قبيح ومنكر، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية (٢).

وقال تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

باب (خذ العفو)، ٦٠/٦، رقم ٤٦٤٣.

(١) في ظلال القرآن ١٣٦/٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٣، المداراة في الاسلام، وليد السعد ص ١١.

(٣) المصادر السابقة.

لطيف الحيلة فتوصل إلى بغيته بالرفق، والسهولة^(١).

ويقول تعالى في سورة التوبة مخاطبًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم كيف يكون تعامله مع أصحابه ليظمنوا إليه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

أي: أدخل السرور على قلوب المؤمنين بالكلام الطيب اللين، والدعاء لهم ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينتهم وسكون قلوبهم^(٢).

ويقول تعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام عند ذهابهما لدعوة فرعون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٥٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّنَا إِلَهُةٌ يَدْعُرَا وَنَخْشَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

وهاتان الآيتان فيهما دلالة واضحة على معنى المداراة وهي: القول اللين اللطيف الذي لا خشونة فيه ولا غلظة، لأن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين قسوة الطغاة^(٣).

«والقول اللين داعٍ لذلك، والقول الغليظ

ورغباتها، عند أصعب ساعات الإثارة والظغيان. فهو أمام تهمة خطيرة، مخلة بالشرف، ومخالفة للمروءة، ومن أقرب الناس إليه، وكان يستطيع أن ينتقم لنفسه منهم، وأن يوقع بهم أشد العقوبة لمكانته الاجتماعية المتميزة عند ملك مصر، وقبل ذلك ما فعلوا به من إلقائه في الجب، وحرمانه من أبويه، وتصويره رقيقًا، فقد سنحت الفرصة، وقد أصبح وزيرًا للملك، ويده خزائن الأرض، وجاء إخوته مع من جاء من الفقراء المعوزين يطلبونه رزقًا بعد أن مسهم وأهلهم الضر.

ولكنه كان نبيًا كريمًا، حكيماً ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾. فقد كان عليه السلام واثقًا من ربه، ومتحصنًا بإيمانه، فلو أخذته العزة بالإثم لأمر من يفتك بهم، أو أن يطردهم شر طردة، وكان محققًا. ولكنه أدرك عليه السلام بأن فقدهم سيزيد من ألم أبيه وحزنه، وأساه. وأدرك أيضًا أن للشيطان دورًا فيما وقع بينه وبين إخوته، فلا ينبغي أن يكون عونًا له على ما أراد.

فكظم غيظه، وعفا عنهم، بعد أن عرفهم بخطئهم، وأبر بوالديه، وجمع شمل أسرته. وما كان ذلك ليتحقق لولا مشيئة الله، ثم الصبر والملاينة، وشيء من الحيلة، والحنكة، والختل. فقد كان عليه السلام

(١) المداراة وأثرها في العلاقات الاجتماعية بين الناس، محمد بن سعد ص ١٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥١، المداراة في الاسلام، وليد السعد ص ١٢.

(٣) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ١٩٥.

منفرد عن صاحبه»^(١).

والقول اللين: لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يوقف القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان^(٢).

من الإيمان بهذا الدين^(٤).

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَلِلَّهِ الَّذِي يَبْنِيكُمْ وَيُنْشِئُ عداوةً كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ومن المداراة، عدم مقابلة المسيء بجنس عمله. فإذا أراد إزالة عداوته، لا بد من الإحسان إليه مع الصبر على ما يكره. ومما جاء في تفسيرها: أي لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها ولا في وضعها، ولا في جزائها. ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير. وهو الإحسان إلى من أساء إليك فقال: ﴿أَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً من له حق كبير عليك كالأقارب، والأصحاب ونحوهم، إساءةً بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصله، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائباً أو حاضراً فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين.

وإن هجرك وترك خطابك فطيب له الكلام، وابذل له السلام. فإذا قابلت

فيكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]^(٣).
ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

في هذه الآية أمر الله المؤمنين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن أي: بحسن خلق، ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد على الباطل، والتنفير منه وتقييده أو بأي طريق رجاء إجابتهم، واستمالة لقلوبهم، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة كالقدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، بل يقارعهم بالحجة بالحجة والدليل بالدليل، ليلزمهم الإقرار بالقرآن وبالرسول، وبما يدعو إليه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠٦.

(٢) في ظلال القرآن ٧٦/٥.

وانظر: المداراة في الاسلام، وليد السعد ص ١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٩٤/٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣٥٠/١٣.

تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٢.

الإساءة بالإحسان حصل فائدة عظيمة وخير عميم، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ الآية، الرجل يشتمه أخوه، فيقول، إن كنت صادقاً فغفر الله لي. وإن كنت كاذباً فغفر الله لك.

وكان بكر رضي الله عنه يقول: ما عليك أن تنزل الناس منزلة أهل البيت، فتتزل من كان أكبر منك منزلة أبيك، وتتزل من كان منهم قرينك منزلة أخيك، وتتزل من كان أصغر منك منزلة ولدك فأبي هؤلاء تحب أن يهتك ستره؟^(٢).

أما عن كونها سنة عامة مندوباً إليها فسيظهر من خلال الأحاديث النبوية الشريفة التي تحت المسلم على فعلها. ومنها ما يلي: فعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (على كل مسلم صدقة، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع، أو لم يفعل؟ قال: فيعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليأمر بالخير. أو قال بالمعروف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليمسك عن الشر. فإنه له

صدقة)^(٣).

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق)^(٤).

قال ابن بطال في شرحه لهذا الحديث: «كل شيء يفعله المرء أو يقوله من الخير، يكتب له به صدقة. والمعروف: اسم كل فعل يعرف حسنه بالشرع والعقل معاً. وفيه إشارة إلى أن الصدقة لا تنحصر في الأمر المحسوس منه. بل كل واحد قادر على أن يفعلها في أكثر الأحوال بغير مشقة^(٥).

ولحسن الخلق شأن عظيم في الإسلام، فقد عد الرسول صلى الله عليه وسلم صاحب الخلق الحسن من أكمل المؤمنين إيماناً.

وعن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أخبركم بأكملكم إيماناً؟ أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون)^(٦) والموطئون: من

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٠٠٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب استحباب طلاقة الوجه عن اللقاء، رقم ٢٦٢٦.

(٥) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٨/ ٣٢٨.

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٦/ ٢٧٠، رقم ٨١١٨.

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٦٦، رقم ١٢٣١.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٤٩.

(٢) انظر: مداراة الناس، ابن أبي الدنيا ص ٥٣.

من علماء الحديث (٣).

وقال أيضًا: «اختلف العلماء في الرجل الذي استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فمنهم من جزم بأنه عينة بن حصن الفزاري، ولم يكن أسلم حينئذ، وإن كان قد أظهر الإسلام. فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين حاله ليعرفه الناس، ولا يغتر به من لم يعرف حاله، وكان منه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ما دل على ضعف إيمانه. وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ارتد مع من ارتد وجيء به أسيرًا إلى أبي بكر رضي الله عنه. قال ابن بطال: وكان يقال له الأحق المطاع ورجا النبي صلى الله عليه وسلم بإقباله عليه تألفه ليسلم قومه لأنه كان رئيسهم» ومنهم من جزم بأنه مخرمة وقصره عليه، ومنهم من حمل الحديث على التعدد (٤).

وعلى كل، فإن الحديث يدل على جواز إلانة القول لمن كان هذا حاله، تألفًا له للدخول في الإسلام، أو ليحسن إسلامه، أو ليسلم قومه، أو لأي أمر يعود بالمصلحة على الأمة الإسلامية.

ومن يقرأ هذا الحديث الذي اعتبره ابن حجر وغيره أصلًا في المداراة، قد يتوهم

التوطئة، وهي التمهيد والتذليل. والأكناف: الجوانب. يعني الذين جوانبهم وطية يتمكن فيها من يصاحبهم ولا يتأذى، وهم الهينون اللينون، الذين يحسنون المعاملة (١).

أما عن أدلة حصول المداراة ومشروعيتها في الإسلام؛ فهو ما روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بخصوص الرجل الشرير الأحق، الذي استأذن على الرسول صلى الله عليه وسلم فنعتته بقوله: (بئس أخو العشيرة) فلما دخل تلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقة الوجه والانبساط ثم ألان له الكلام.

فمن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته: (أنه استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ائذنوا له بئس أخو العشيرة. أو ابن العشيرة. فلما دخل ألان له الكلام. قلت يا رسول الله: قلت الذي قلت ثم ألتت له الكلام. قال: (أي عائشة. إن شر الناس من تركه الناس، أو ودعه الناس، اتقاء فحشه) (٢).

يقول ابن حجر عند شرحه للحديث: «هذا الحديث أصل في المداراة» وعلى هذا الرأي الهيثمي والسخاوي وجمهرة كبيرة

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٠٥/٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب مداراة من يتقى فحشه، رقم ٢٥٩١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٠/٤٥٣.

(٤) المصدر السابق.

وانظر: المداراة في الإسلام، وليد السعد ص ٢١.

أن الرسول صلى الله عليه وسلم حاشاه - قد وقع في غيبة الرجل عندما ذمه بذكر ما يكره لو سمعه صراحة من الرسول صلى الله عليه وسلم أو أنه داهنه عندما هش له وبش، وانبسط له، وألان الكلام معه. فإذا ما وقفنا على الحكم استحضرننا مسوغ فعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بيان كيفية التعامل مع مثل هؤلاء. ويضاف إلى ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان طيب الكلام، فلم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا سباباً ولا لعاناً، وكان ينهى عن الغيبة والتملق والمداينة والنفاق.

«وليس في قول النبي صلى الله عليه وسلم في أمته بالأمر التي يسميهم بها، ويضيفها إليهم من المكروه غيبة. وإنما يكون ذلك من بعضهم في بعض. بل الواجب على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين ذلك ويفصح به، ويعرف الناس أمره فإن ذلك من باب النصيحة والشفقة على الأمة. فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلم أمته اتقاء شر من هذا سبيله، ومداراته ليسلموا من شره وغائلته وذلك بأن يظهروا لهم البشاشة، وأن لا يجهروهم بها»^(١).

إذن ففعله صلى الله عليه وسلم كان استلطافاً وتطبيلاً لخاطر ذلك المنافق الشرير ليتمكن من إيمانه، وينجذب بذلك إلى

الإسلام وينجذب قومه معه بالإضافة إلى تعريف الناس بحاله ليتقوه.

ما رواه عدي بن حاتم رضي الله عنه عن إكرام الرسول صلى الله عليه وسلم له كما أكرم أخته قبل إسلامه بعد عودته إلى المدينة المنورة. وكان قد فر منها إلى الشام بعد انتصار المسلمين. قال عدي رضي الله عنه: (ثم مضى بي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقفها إلي، فقال: اجلس على هذه. قال: قلت بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت. فجلست عليها وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض. قال: فقلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك)^(٢).

وتذكر السيرة النبوية أنه دخل في الإسلام، وكان له الأثر الواضح في الدعوة والجهاد.

ولاشك أن الاحترام الظاهري، والتعامل الحسن مع من لا يستحقه - كحال عدي قبل إسلامه - إذا كان لمصلحة شرعية تعود بالنفع على الإسلام وأهله من زيادة عدد المسلمين أو دفع الأذى والضرر عنهم وغير ذلك جائز استناداً إلى فعله صلى الله عليه وسلم.

ولهذا عندما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ٤/ ٣١٦.

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٥٤.

يَنْجِيَهُ فَيَحْيَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ [النساء: ٨٦].

قال: «من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسياً»^(١).

ومن المداينة المشروعة: التقية.

وقد ذهب جمهور علماء أهل السنة إلى أن الأصل في التقية هو الحظر، وجوازها ضرورة، فتباح بقدر الضرورة.

قال القرطبي: والتقية لا تحل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم، ولم ينقل ما يخالف ذلك فيما نعلم إلا ما روي عن معاذ بن جبل من الصحابة، ومجاهد من التابعين، وإنما ذهب الجمهور إلى ذلك لأن الله تعالى نص عليها في كتابه بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن عباس في تفسيرها: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم في الدين^(٢).

ومن الأدلة على مشروعية التقية للضرورة قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ

بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

وسبب نزول الآية: (أن المشركين أخذوا عماراً فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير، فتركوه. فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما وراءك؟ قال: شر، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان. قال: إن عادوا فعد، فنزلت: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٣).

ومن الأدلة على جواز التقية للضرورة ما أخرجه ابن أبي شيبة عن الحسن: (أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. نعم. نعم. قال أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم وكان مسيلمة يزعم أنه رسول بني حنيفة وأن محمداً رسول قريش، ثم دعا بالآخر، فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: إني أصم. قالها ثلاثاً، كل ذلك يجيبه بمثل الأول. فضرب عنقه. فبلغ ذلك رسول

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١٩/٥.

(٢) المفهم لما أشكل في شرح صحيح مسلم، القرطبي ٣٢٣/٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٧٤/١٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٨٦/٣.

الله صلى الله عليه وسلم فقال: أما ذلك فقد مضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضلته، فهنيئاً له. وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه^(١).

وقال الحسن: التقية جائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة. وقد نسب القرطبي إنكار التقية إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كانت التقية في جدة الإسلام قبل قوة المسلمين فأما اليوم فقد أعز الله أهل الإسلام أن يتقوا عدوهم»^(٢).

ونقل السرخسي عن قوم لم يسمهم أنهم كانوا يأبون التقية، ويقولون: هي من النفاق^(٣).

قال السرخسي: إن هذا النوع - يعني النطق بكلمة الكفر تقية - يجوز لغير الرسل. فأما في حق المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فما كان يجوز ذلك فيما يرجع إلى أصل الدعوة إلى الدين الحق، وتجوز ذلك محال - أي ممنوع شرعاً - لأنه يؤدي إلى أن لا يقطع القول بما هو شريعة، لاحتمال أن يكون فعل ذلك أو قاله تقية^(٤).

(١) انظر: الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف، ابن حجر ٢/٦٣٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/٣٢٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/١٢٣.

(٣) المبسوط، السرخسي ٢٤/٤٣.

(٤) المصدر السابق ٢٤/٤٤.

وانظر الموسوعة الفقهية الكويتية ١٤/١٨٤.

وهو يشير بذلك إلى ما يبينه أهل الأصول من أن حجية السنة النبوية متوقفة على كون كل ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم حقاً، إذ لو تطرق إلى أقواله أو أفعاله احتمال أنه فعل أو قال أشياء من ذلك على سبيل التقية وهي حرام، لكان ذلك تليساً في الدين، ولما حصلت الثقة بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله.

وكذلك السكوت منه صلى الله عليه وسلم على ما يراه ويسمعه من أصحابه إقرار تستفاد منه الأحكام الشرعية، فلو كان بعض سكوته يكون تقية لالتبست الأحكام على المسلمين.

وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رِسَالَتَ اللَّهِ وَيُخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسِبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

قال القرطبي: دلت الآية على رد قول من قال إن النبي صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من أمر الدين تقية، وعلى بطلانه وهم الرافضة^(٥).

وفي فواتح الرحموت: ما من نبي إلا بعث بين أعدائه، فلعله - أي: في حال

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٦/٣٢٤.

صبروا على عذاب الحريق في الأخدود، واختاروا ذلك على أن يظهروا الرجوع عن دينهم. وثناء الله تعالى عليهم بذلك الثبات يدل على تفضيل موقفهم على موقف العمل بالتقية في قضية إظهار الكفر. ومنها قوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

ومما يستدل به على ذلك من السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تشرك بالله شيئاً وإن قتلت وحرقت) (٢).

وكذلك ما تقدم في مسألة مسيلمة، فقد عذر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابي الذي وافق مسيلمة وقال فيه: (لا تبعة عليه) وقال في حق الذي ثبت فقتل: (مضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضل، فهنيئاً له) وهذا يدل على التفضيل. واحتج السرخسي أيضاً بقصة «خبيب بن عدي لما امتنع من موافقة قريش على الكفر حتى قتلوه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو: «أفضل الشهداء» وقال: (هو رفيقي في الجنة) (٣).

وقد بوب البخاري رحمه الله لهذه المسألة باباً بعنوان «باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر» وأورد فيه حديث خباب بن الارت أنه قال: (شكونا إلى رسول

افتراض عمله بالتقية - كتم شيئاً من الوحي خوفاً منهم، وكذا محمد صلى الله عليه وسلم بعث بين أعدائه، ولم يكن له ولأصحابه قدرة لدفعهم فيلزم على تجويز التقية له احتمال كتمان شيئاً من الوحي، وأن لا ثقة بالقرآن. فانظر إلى شناعة هذا القول وحماقته على أن امتناع التقية على الأنبياء لا يعني عدم عملهم بالملاطفة واللين والمدارة للناس كما تقدم، أي: من دون إخلال بفريضة أو ارتكاب لمحرّم (١).

وتقدمت الأدلة على جواز العمل بالتقية. وقد اختلف في حكمها.

ف قيل: إذا وجد سببها وتحقق شرطها فهي واجبة، لأن إنقاذ النفس من الهلكة أو الإيذاء العظيم ونحو ذلك لا يحصل إلا بها في تقدير المكلف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

والصحيح عند العلماء أن الأولى للإنسان أن يثبت على ما هو عليه من الحق بظاهره، كما هو عليه بباطنه. وقد يكون الثبات أفضل وأعظم أجراً ومثوبة ولو كان العذر قائماً، وثبت هذا بالأدلة الصحيحة في الكتاب والسنة، فمن الكتاب ما في سورة البروج، فقد حكى الله تعالى قصة الذين

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم ٤٠٣٤.

وصححه في الإرواء، ٨٩/٧، رقم ٢٠٢٦.

(٣) المبسوط ٤/٤٥.

(١) فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت، للكنوي ٣/٣٢١.

الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على مفرق رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه ثم قال صلى الله عليه وسلم والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون^(١). وهو واضح الدلالة على المقصود. وهكذا كل أمر فيه إعزاز للدين وإعلاء لكلمة الله وإظهار لثبات المسلمين وبسالته، وتثبيت لعامة المسلمين على الحق، يكون الثبات على الحق وإظهاره أولى من التقية، وهذا بخلاف نحو الإكراه على شرب الخمر وأكل الميتة وحيث لا تظهر المصالح المذكورة^(٢).

ثانياً: المداينة المحرمة:

سبق وأن ذكرنا أن المداينة تقترب كثيراً من النفاق، وربما كانت كفرًا إذا كانت المداينة لصاحب الكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، رقم ٦٩٤٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٣٩/١٢. وانظر الموسوعة الفقهية الكويتية ١٤/١٩٠.

قال ابن عباس: «ودوا لو تكفروا فيكفرون»^(٣). فالمداينة خلقٌ قذرٌ، لا ينحط فيه إلا من خف في العلم وزنه، أو من نشأ نشأة صغار ومهانة. وتكمن خطورة هذا الخلق في أنه يتعارض تماماً مع أهم المبادئ الإسلامية، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذا فإن الدعوات السماوية والوضعية قد جعلت جوهر أهدافها الإصلاح، والإصلاح هو لب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالقرآن الكريم قد ركز في أغلب سورته على الإصلاح، وقد ظهر واضحاً من خلال تأكيد القرآن الذي أوصى الإنسان بأخيه الإنسان، فحرم الكذب والخيانة والغش والاعتداء بكل صوره المادية والمعنوية، وهذه المبادئ وغيرها تشترك في منع أي منا من أن يساعد على الظلم والفساد، فيما تدفعه للتعاون في جميع أنواع البر ومنه الإصلاح. وأدلة تحريم المداينة كثيرة.

قال تعالى: ﴿أَفَبِعَدَا لَلْحَيَاةِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾

[الواقعة: ٨١].

وقال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾

[القلم: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾

[هود: ١١٣].

حكى القرطبي في تفسيرها أن معناها:

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٦/٢٩.

العلم: هذه الآية تدل على أن الخطأ والنسيان جائزان على الرسول ، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ والتعمد في مثل هذا غير جائز على الرسول، فلم يبق إلا الخطأ والنسيان^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعُوا أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وإذا ثبتت حرمة المداهنة لما تقدم فلا ينبغي للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لأمته في كل عصر ومصر أن يطيعوا الكافرين ولا المنافقين إذا أشاروا عليهم بالمداهنة والترخص أو التنازل بدعوى المصلحة، ولا يأبهاوا بأي أذى متوقع ويعتمدوا على الله في ذلك كله، فهو وحده الوكيل وكفى بالله وكيلاً.

قال الشوكاني: ثم نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين فقال: ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: لا تطعمهم فيما يشيرون عليك به من المداهنة في الدين وفي الآية تعريض لغيره من أمته لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه ويشيرون به عليه^(٣).

قال صاحب الظلال: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعُوا أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

«لا تودوهم ولا تطيعوهم ولا تميلوا إليهم. والركون هنا: الإدهان وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم ثم قال: وهذا هو الصحيح في معنى الآية، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ، فإن صحبتهم كفر أو معصية، إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة، فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتقية فقد مضى القول فيها في «آل عمران» و«المائدة». وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي في حال الاضطرار. والله أعلم^(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

قال الرازي في تفسيرها: «قال ابن عباس: يريد به يردوك إلى أهوائهم، فإن كل من صرف من الحق إلى الباطل فقد فتن، ومنه قوله: ﴿وَلِنْ كَادُوا لَيَقْتُلُنَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِيُنْفِرَ عَلَيْنَا غَرَضٌ وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

والفتنة ههنا في كلامهم التي تميل عن الحق وتلقي في الباطل وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «أعوذ بك من فتنة المحيا». قال: هو أن يعدل عن الطريق، قال أهل

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ١٧٧.

(٣) فتح القدير ٤/ ٢٨٠.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٧٩.

عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ [الأحزاب: ٤٨]

« توجيه النبي صلى الله عليه وسلم ألا يحفل بأذى الكافرين والمنافقين، ولا يتقيه بطاعتهم في شيء أو الاعتماد عليهم في شيء، فאלله وحده هو الوكيل، وكفى بالله وكيلاً^(١) ».

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبْسِتْ لَكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].

قال القرطبي في تفسيرها: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا بالكذب والرد والاستهزاء فأعرض عنهم والخطاب مجرد للنبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه. وهو صحيح، فإن العلة سماع الخوض في آيات الله، وذلك يشملهم وإياه. فأدب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية، لأنه كان يقعد إلى قوم من المشركين يعظهم ويدعوهم فيستهزئون بالقرآن، فأمره الله أن يعرض عنهم إعراض منكر. ودل بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكراً وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه^(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَقُولُوا وَمَنْ يُؤْمَمْ فَآوَيْتَكُمْ لَهُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ٩].

يقول ابن عاشور في تفسيرها: « فذلك لما تقدم وحصر لحكم الآية المتقدمة. وهي تؤذن بانتهاء الغرض المسوق له الكلام من أوله. والقصر المستفاد من جملة ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ﴾ إلى آخرها قصر قلب لرد اعتقاد من ظن أو شك في جواز صلة المشركين على الإطلاق. والذين تحققت فيهم هذه الصفات يوم نزول الآية هم مشركو أهل مكة، و﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ بدل اشتمال من ﴿الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ﴾ و﴿وَمَنْ يُؤْمَمْ﴾ شرط وجيء في جواب الشرط باسم الإشارة لتمييز المشار إليهم زيادة في إيضاح الحكم. والمظاهرة: المعاونة. وذلك لأن أهل مكة فريقان منهم من يأتي بالأسباب التي لا يحتمل المسلمون معها البقاء بمكة، ومنهم من يعين على ذلك ويغري عليه. والقصر المستفاد من قوله: ﴿فَآوَيْتَكُمْ لَهُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قصر ادعائي، أي: أن ظلمهم لشدة ووقوعه بعد النهي الشديد والتنبيه على الأخطاء والعصيان ظلم لا يغفر لأنه اعتداء على حقوق الله وحقوق المسلمين وعلى حق الظالم نفسه^(٣).

ولا شك أن الحق سبحانه نهى عن موالة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٣٤.

(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ٥٦.

وَأَقْسَلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ [النساء: ٨٩].

ويقول سبحانه لنبيه: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ
الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ
اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ
﴿٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

والواجب على المؤمن أن يعتمد على
الله في تنفيذ شرعه، وأن لا تأخذه فيه لومة
لائم، وأن لا يخاف من أعدائه، فقد قال
الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ
فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل
عمران: ١٧٥].

وقد جاء النص الصريح من كتاب الله عز
وجل على أن من اتخذ الكفار أولياء من دون
المؤمنين أنه: منافق لا يؤمن بالله ولا بالنبى
وما أنزل إليه وأنه من جملة الكفار الذين
والاهم ونصرهم.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْحِزْبُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ
لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

وخلاصة الأمر أن الإنسان إذا أظهر
للمشركين الموافقة على دينهم خوفًا منهم
ومداراة لهم ومداينة لدفع شرهم فإنه كافر
مثلهم وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب
الإسلام والمسلمين.

الكفار بنص صريح، فقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ
قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ
مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ
أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ
كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَتَدَّهُمْ فِي رُوحٍ
يُنْزِلُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَةُ مِنْ أَقْوَابِهِمْ وَمَا
تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ
كُنْتُمْ مُعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨].

وأخبر أنه إذا لم يكن المؤمنون بعضهم
أولياء بعض والذين كفروا بعضهم أولياء
بعض، ويتميز هؤلاء عن هؤلاء، فإنها تكون
فتنة في الأرض وفساد كبير.

ولا ينبغي أبدًا أن يثق المؤمن بغير المؤمن
مهما أظهر من المودة وأبدى من النصح؛
فإن الله تعالى يقول عنهم: ﴿وَدُّوا أَنْ تَكْفُرُوا
كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ
أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ

أسباب المداينة المشروعة

لا شك أن النفوس المطبوعة على المداراة نفوسٌ أدركت أن الناس خلقوا ليكونوا في الائتلاف كجسد واحد، وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتزمة متماسكة على قدر ما فيها من حياة، ولا تنكر عضوًا ركب معها في جسد إلا أن يصاب بعلّة يعجز الاطباء أن يصفوا لها دواء^(١).

ومن هنا تبرز أهمية الاتحاد والتعاون الاجتماعي. وفي المقابل نجد النفوس الشريرة لا تسعى لتحقيق هذا الخلق النبيل. بل تعمل صباح مساء على إشعال نار الفتنة وتهيج النفوس وشحنها بالبغضاء وحثها على الخراب والقتل والدمار. ولا شك أنه لحصول ذلك كله أسبابٌ ودواعٍ تقتضيه. وهذا ما سنبينه بحول الله وقوته فيما يأتي:

أولاً: أسباب المداينة المشروعة:

١. مداراة الناس صدقة.

قال ابن حجر: ما ورد فيه صريحاً: أي في جواز المداراة حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مداراة الناس صدقة)^(٢).

(١) رسائل الإصلاح، محمد الخضر حسين ص ١٢٩.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٣٤٧/١، وأبو نعيم في الحلية، ٢٤٦/٨. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع،

وقال أبو حامد الغزالي « الناس ثلاثة: أحدهم مثل الغذاء لا يستغنى عنه. والآخر مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت. والثالث: مثل الداء لا يحتاج إليه لكن العبد إذا ابتلي به وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع فتجب مداراته الى الخلاص منه^(٣).

ومعنى الحديث: أن المداراة واللين والتعطف تكون صدقةً على صاحبها إذا ابتلي الرجل بمخالطة الناس معاملةً ومعاشرةً فالأن جانبه معهم وتلطف ولم ينفر منهم^(٤).

٢. المداراة من الحكمة والذكاء لإرضاء الناس.

لما كانت المداراة رأس العقل صارت بدهياً من الحكمة والذكاء.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال « رأس العقل بعد الايمان بالله مداراة الناس^(٥).

والمداراة يبتغى بها رضى الناس وتأليفهم في حدود ما ينبغي أن يكون، فلا يبعدك عنها قضاء بالقسط أو إلقاء نصيحة في رفق. والمداراة ترجع الى ذكاء الشخص

ص ٧٥٩، رقم ٥٢٥٥.

(٣) إحياء علوم الدين ٣١٢/٢.

(٤) انظر: التقيّة والمداينة والمداراة في القرآن،

عبد المنعم إبراهيم ص ٤٥.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الاخلاق ص

١٣٩.

وضعه الألباني في ضعيف الجامع،

ص ٤٥٢، رقم ٣٠٧١.

وَيَقْوِرَ لَا أَشْتَكُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَأِنْ أَجْرَى إِلَّا عَلَى
اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ
وَلَكِنِّي أَزِيدُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٣١﴾ وَيَقْوِرَ مِنْ
يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَا
أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا
أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ
لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا
لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٣﴾ [هود: ٢٨ - ٣١].

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالمداواة
وفعله إياها.

فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال: (إنا لنكسر في وجوه القوم وقلوبنا
تلعنهم) (٢).

وفي رواية أخرى ما يؤيد ذلك، فعن جرير
ابن عبد الله قال: (جاء ناس من الأعراب
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا:
إن ناسا من المصدقين يأتونا فيظلمونا، قال
فقال: «أرضوا مصدقكم»، فقالوا: يا رسول
الله وإن ظلمونا؟ قال: «أرضوا مصدقكم»
وزاد عثمان و«إن ظلمتم» (٣).

٣. المداواة علاج للعداوة بين الناس.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا
السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِلَّتِي الَّتِي يَنْتَكِ
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿٢٥﴾ [فصلت:
٣٤].

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب
إرضاء السعاة، رقم ٩٨٩.

وهو الذي يراعي في مقدارها وطريقتهما ما
ينبغي أن يكون ولأسباب العداوة مدخل في
تفاوت مقادير المداواة واختلاف طرقها (١).
والمداواة من أخلاق الأنبياء عليهم
السلام.

قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَالَّذِينَ
مَدِينُ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَقْوِرَ أَعْبُدُوا
اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرِيتُمْ بِخَيْرٍ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ
بِهِ﴾ ﴿٨٤﴾ وَيَقْوِرَ أَتَوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ
بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا
تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ
خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِحَفِيطٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَنْشَعِبُ أَصْلُكَ
تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ
فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ
﴿٨٧﴾ قَالَ يَقْوِرَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَوِي مِنْ
رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلْغِيَكُمْ
إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ [هود: ٨٤ - ٨٨].

وقال نوح لقومه: ﴿قَالَ يَقْوِرَ أَرَأَيْتُمْ
إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَوِي مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ
فَعُصِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ كُفَرْتُمْ وَأَنْتُمْ هَا كَاذِبُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

(١) رسائل الإصلاح، محمد الخضر حسين ص
١٣٤.

« يقول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم »^(١).

ثانياً: صور من المداينة المشروعة:

الصورة الأولى: المداراة بالكلمة اللينة والقول الحسن، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

«فينبغي على الإنسان عند تعامله مع الناس، ودعوتهم إلى الخير أن يخاطبهم بالطيب من الكلام مبتعداً عن الألفاظ والكلمات النابية، من اللعن والسب والشتم، والإغلاظ في القول، متأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم في معاملته مع الناس، وسأكتفي بذكر بعض الأحاديث الدالة على أهمية الكلمة اللينة، والكلام الحسن، وأنهما من أفضل الأعمال عند الله سبحانه، وبهما ترتفع درجة العبد عند ربه عز وجل وينال بهما إذا أضيفا إلى بقية أعماله الصالحة رضوان الله سبحانه والفوز بالجنة.

فعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل، الكلمة الحسنة

والكلمة الطيبة)^(٢).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه من حديث طويل رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله ربه عز وجل عن الدرجات. قال: (أي: الله سبحانه) وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام)^(٣).

وللكلمة الطيبة في النفوس مفعول أكثر من إعطائها المال، فعن عروة بن الزبير بن العوام قال: مكتوب في الحكمة: لتكون كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء)^(٤).

وفي المقابل فإن للكلمة السيئة أثراً في نفوس السامعين، فقد تؤدي إلى الوقوع في أعراض الناس وغيتهم، ونسبتهم إلى ما هو غير كائن، كما يفهم ذلك من مفهوم الآيات والأحاديث السابقة.

والأحاديث النبوية، وأقوال أهل العلم كثيرة في هذا الموضوع تبين أهمية الكلمة الطيبة وأثرها على الأفراد والجماعات.

الصورة الثانية: المداراة بطلاقة الوجه والبشر: التبسم والضحك والانبساط،

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل، رقم ٢٢٢٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب وسورة ص، رقم ٣٢٣٥.

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) انظر: مداراة الناس، ابن أبي الدنيا ص ٤٩.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٥ / ٢٤.

فرحبوا بهم، وخلوا بينهم وبين ما يبتغون، فإن عدلوا فلا أنفسهم، وإن ظلموا فعليها، وأرضوهم فإن تمام زكاتكم رضاهم وليدعوا لكم^(٥).

هذه الأدلة وأمثالها تبين لنا أهمية طلاقة الوجه والبسمة والضحك في إقامة بعض الروابط والعلاقات الاجتماعية بين الناس. الصورة الثالثة: المداراة بالعطايا والهبات الإحسان إلى الداخلين في الإسلام حديثاً، إنما شرع لتحبيبهم في الإسلام وجذبهم إليه، واستبعادهم عن الشرك، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحسن إليهم بالقول والفعل، بالكلمة الطيبة، والملاطفة والانبساط في وجوههم، أو بإعطائهم مالاً، أو عقاراً تأليفاً لقلوبهم، ليحسن إسلامهم والحوادث التي تدل على ذلك من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة أذكر طرفاً منها:

بعد غزوتي حنين والطائف حيث حسن إسلام أكثر المؤلفة قلوبهم وانخرطوا في الجهاد يدافعون عن الإسلام ويتمنون الشهادة في سبيل الله، بل وانقلب بغضهم الشديد للرسول صلى الله عليه وسلم إلى حبٍ سيطر على قلوبهم وعقولهم فعن

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب رضا المصدق، ١٠٥/٢، رقم ١٥٨٨. وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، الأم، ١٠٩/٢، رقم ٢٧٨.

ومن ذلك ما روي عن أبي الدرداء أنه قال: (إننا لنكشر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم)^(١).

ونكشر في وجوه القوم: أي: نبسم في وجوههم. وكاشره: إذا ضحك في وجهه وبأسطه^(٢).

وكان عليه الصلاة والسلام كما ثبت في بعض الأحاديث، إذا لقي رجلاً هاشماً باشاً صافحه وأقبل عليه. روى عكرمة قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقي الرجل فرأى في وجهه البشر صافحه)^(٣).

ولقد عد الرسول صلى الله عليه وسلم التبسم من الصدقة، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تبسمك في وجه أخيك صدقة)^(٤).

ويلحق بطلاقة الوجه والبشر، الترحيب بالفاجر ولإلانة الكلام له.

فعن عبد الرحمن بن جابر بن عتيك عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (سيأتيكم ركب مبغضون. فإذا جاءوكم

- (١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس معلقاً، ٣١/٨.
- (٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢٦١/٣.
- (٣) انظر: مداراة الناس، ابن أبي الدنيا ص ٦٣.
- (٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب صنائع المعروف، رقم ١٩٥٦. قال الترمذي: حديث حسن. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٥٦١/١، رقم ٢٩٠٨.

الناس بالباطل، أو اتقاء شرهم وفحشهم، أو إبعادهم عن غيهم وفسادهم.

لا شك أن هذا الأسلوب لا يكون إلا بالطرق الطيبة الحكيمة مثل الكلام اللطيف، والابتسامة الرقيقة، والتنبيه على الأخطاء برفق ولطف، وأسلوب حسن، والدعاء لهم بالهداية والتوفيق، وأن يعينهم الله على ترك الباطل، وإقامة الحق، والتعاون معهم على الخير. وإذا ما تم ذلك فقد يضمحل الشر في نفوسهم، أو يزول، ويكثر الخير، وأيضًا عدم التشهير بعيوبهم، والتشجيع عليهم على رؤوس الأشهاد لما فيه من الفساد والفتنة والاقتيال، وسفك الدماء. ولا يخفى ما فعله الخارجون على الخليفة عثمان رضي الله عنه حينما أنكروا عليه بعض أعماله علنًا، فآدى ذلك إلى الاقتال، والفتنة بين المسلمين، وتفريق وحدتهم وجماعتهم.

ويفهم أيضًا من قوله تعالى لموسى وهارون - عليهما السلام - عندما أمرهما سبحانه: بالذهاب إلى فرعون، ودعوته للحق قال سبحانه ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا لَمَلَهُ﴾ [طه: ٤٤].

ويفهم أيضًا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في كيفية معاملة الأمراء لمصلحة حقن دماء المسلمين ومنع سفكها بغير حق فعن أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

صفوان قال: (والله لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إلي، ما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي) (١).

وتظهر حكمة مداراة الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار عندما غضبوا من طريقة توزيع الغنائم بعد غزوة الطائف. قال لهم: (أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون أنتم برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله رضينا. فقال: لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار شعبًا لأخذت شعب الأنصار). وفي رواية أخرى: (ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والابل وتذهبون برسول الله إلى رحالكم. الأنصار شعار والناس دثار ولولا الهجرة لكنت امرًا من الأنصار) (٢).

الصورة الرابعة: المداراة بالنصيحة والدعاء للحكام.

والمقصود هنا، كيف نتعامل مع الحكام سواء أكانوا من الكفار أم من المسلمين، وكيف نتعامل مع الفجار، والفسقة وأضرابهم من الناس، إما لجلبهم للدين، أو ردهم عن الظلم والتجبر وأكل أموال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط فقال: لا، ٤/١٨٠٦، رقم ٢٣١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، رقم ١٠٦١.

والمجاملة، والعطف، والإغضاء عن الهفوات، والصبر على الأذى، للمحافظة على تماسك الأسرة، وصفاء جوها.

يقول تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعل الله فيه خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [النساء: ١٩].

والعشرة بين الزوجين، كما هو معلوم تكون بالقول والفعل، والصحبة الجميلة وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، والرفق، وكف الأذى، وعدم إظهار الكراهة وغير ذلك. ويفعل ذلك كله بإقبال وبشر وطلاقة وجه.

ولعل الحكمة من مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الجميلة، هو زوال الكراهة بين الزوجين لتخلفها المحبة بينهما^(٣).

والأدلة من السنة النبوية الكريمة، المؤكدة على حسن معاشرة الرجل لزوجته والوصاة بها كثيرة.

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المرأة كالضلع. إن أقمتهما كسرتهما، وإن استمعت بها استمعت بها وفيها عوج)^(٤).

وفي لفظ آخر عنه: (إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، وإن

(ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع. قالوا: أفلا نقاتلهم. قال: لا ما صلوا).

وفي رواية: (قلنا: يا رسول الله أفلا نناذبهم عند ذلك، قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، إلا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزع عن يدا من طاعة)^(١).

قال النووي: «أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر عليهم، وإن ظلموا وأكلوا أموال الناس بالباطل، واللين معهم مع كراهة أفعالهم بقلوبنا للبراءة من الإثم إذا لم نستطع أن نغير المنكر باليد واللسان»^(٢).
الصورة الخامسة: المداراة بالصحبة الجميلة والمعاشرة الحسنة.

الأسرة قائمة على المودة والرحمة، والإحسان، والمعروف. حتى في أشد الحالات وأصعبها، كالطلاق مثلاً.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والعلاقات الأسرية، وبخاصة بين الزوجين ينبغي أن يسودها اللين،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا، رقم ١٨٥٤.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ١٤٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب المداراة مع النساء، رقم ٥١٨٤.

استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر. فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيرا. فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا^(٢)).

وقوله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء خيرا) كان فيه رمزا إلى التقويم برفق بحيث لا يبالغ فيه فيكسر، ولا يتركه فيستمر على عوجه والمراد أن يتركها على اعوجاجها في الأمور المباحة، وأن لا يتركها على الاعوجاج إذا تعدت ما طبعت عليه من النقص، إلى تعاطي المعصية بمباشرتها أو ترك الواجب^(٣).

ففي هذه الأحاديث، الندب إلى المداراة لاستمالة النفوس وتألف القلوب، وفيها: سياسة النساء بأخذ العفو منهن، والصبر على عوجهن. وأن من رام تقويمهن فاته الانتفاع بهن. مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها، ويستعين بها على معاشه، فلا استمتاع

بها لا يتم إلا بالصبر عليها^(٤).

ومن هديه صلى الله عليه وسلم في المداراة أنه كان يرسل الجواري إلى عائشة - رضي الله عنها - يلاعبنها بالبئات (اللعب) فعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تلعب بالبئات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: وكانت تأتيني صواحيبي فكن ينقمعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسربهن إلي^(٥).

ومن هديه صلى الله عليه وسلم أيضا أنه كان يصلح بينهن حال خصومتهم من غيرة ونحوها. فعن أنس رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام. فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلتت، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: غارت أمكم. ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح،

باب المداراة مع النساء، رقم ٥١٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح،

باب الوصاة بالنساء، رقم ٥١٨٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٠/٢٥٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب في

فضل عائشة أم المؤمنين، رقم ٢٤٤٠.

وأرشدنا الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك إلى الإحسان إلى البنات والصبر عليهم فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من رجل تدرك له ابنتان فيحسن إليهما، ما صحبتهما، أو صحبتهما إلا أدخلتهما الجنة) (٤). وعن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته. كن له حجاباً من النار يوم القيامة) (٥).

وفي الباب أحاديث كثيرة تبين كيفية مداراته صلى الله عليه وسلم للصغار من حيث التحجب إليهم وملايتهم وملاعتهم، والتجاوز عن هفواتهم وأخطائهم، والدعاء لهم. ومعلوم كيف كان صلى الله عليه وسلم يعامل الأطفال الصغار، وينهي عن زجرهم إذا ما ارتكبوا خطأ ما. وبلغ من مداراته

والعيال، ١٨٠٨/٤، رقم ٢٣١٧.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٥/٤، رقم ٢١٠٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، ١٢١٠/٢، رقم ٣٦٧٠.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/٦٤٤، رقم ٢٧٧٦.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/٦٢٢، رقم ١٧٤٠٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، ١٢١٠/٢، رقم ٣٦٦٩.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١١٠٦/٢، رقم ٦٤٨٨.

المكسورة في بيت التي كسرت فيه) (١).

وقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم الكذب بين الزوجين، لمصلحة التألف.

فعن ابن شهاب أن حميد بن عبد الرحمن أخبره أن أمه أم كلثوم بنت عقبة أخبرته أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمي خيراً).

قال ابن شهاب: ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها (٢).

ولقد علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة كيفية التعامل مع الأبناء والصغار، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر.

ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: (قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقال: نعم، قالوا: لكننا والله ما نقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة) (٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الغيرة، رقم ٥٢٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه، ٢٠١١/٤، رقم ٢٦٠٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان

أسباب المداهنة المحرمة

سبق وأن ذكرنا أن المداهنة المحرمة نوع من أنواع الموالاة للكفار؛ لأن المداهن إنما خالف بصنيعه هذا نهج الرسل وأتباعهم وهو بالإضافة إلى تركه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ معيناً على إشاعة المنكر في المجتمع لأن الظلمة والفجرة إذا رأوا ذلك زادوا في فجورهم ولعل لهذا وغيره استحق المداهن اللعن في كل ملة؛ لأنه كان - فوق كل ما تقدم - يزين القبيح ويقبح المليح. وهذا كله أدعى لأن نقف على الأسباب المؤدية لهذا التردّي المهلك وصور منها من خلال ما يلي:

أولاً: أسباب المداهنة المحرمة:

١. المداهنة للإضلال.

وقد حكى القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣].

ولما كانت المداهنة كما تقدم محرمة، عصم الله بفضل منه ورحمة نبيه صلى الله عليه وسلم منها لأنها ضلال وإضلال، وكذلك عصمة غيره إنما هي فضل من الله

صلى الله عليه وسلم لهم أنه حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة. فعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه قال: (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يؤم الناس وأمامه بنت أبي العاص وهي ابنة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عاتقه، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع من السجود أعادها) (١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة، رقم ٥١٦.

ورحمة من باب أولى.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى:

﴿لَهْمَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ﴾

«والمعنى: ولولا أن الله خصك بالفضل

وهو النبوة، وبالرحمة. وهي: العصمة

لهمت طائفة منهم أن يضلوك، وذلك لأن

قوم طعمة كانوا قد عرفوا أنه سارق، ثم

سألوا النبي عليه السلام أن يدفع ويجادل

عنه ويبرئه عن السرقة، وينسب تلك السرقة

إلى اليهودي، ومعنى يضلوك أي: يلقوك

في الحكم الباطل الخطأ - وهو التواطؤ

معهم - ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُضْلُونَ

إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ بسبب تعاونهم على الإثم

والعدوان، وشهادتهم بالزور والبهتان، فهم

لما أقدموا على هذه الأعمال فهم الذين

يعملون عمل الضالين. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا

يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وما يضرّونك في

المستقبل، فوعده الله تعالى في هذه الآية

بإدامة العصمة له مما يريدون من إيقاعه في

الباطل. أو المعنى أنهم وإن سعوا في إلقاءك

في الباطل فأنت ما وقعت في الباطل؛ لأنك

بنيت الأمر على ظاهر الحال، وأنت ما أمرت

إلا ببناء الأحكام على الظواهر»^(١).

٢. الجهل بالمداهنات وحدودها وأبوابها

وعلاماتها وعلاجها.

حقاً من لم يعرف الشر يقع فيه. لذا كان

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/٦.

حذيفة رضي الله عنه يسأل عن الشر مخافة

أن يدركه»^(٢)، وكما يعرفه فيتقيه ومن ذلك

رذائل الأخلاق وأرذلها المداهنة، فيلزم كل

أحد أن يعرفها وحدودها وأسبابها وكيفية

اجتنابها وطرق علاجها إن وقع في شيء

منها قل أو كثر.

يقول صاحب رد المحتار على الدر

المختار: «واعلم أن تعلم الإخلاص وتعلم

الحذر من العجب والحسد والرياء فرض

عين. ومثلها غيرها من آفات النفوس: كالكبر

والشح والحقد والغش والغضب والعداوة

والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء

والخيانة والمداهنة والاستكبار عن الحق

والمكر والمخادعة والقسوة وطول الأمل

ونحوها مما هو مبين في ربع المهلكات من

الإحياء قال فيه: ولا ينفك عنها بشر، فيلزمه

أن يتعلم منها ما يرى نفسه محتاجاً إليه،

وإزالتها فرض عين ولا يمكن إلا بمعرفة

حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها، فإن

من لا يعرف الشر يقع فيه»^(٣).

٣. الحرص على الإمارة.

الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فنعمت

المرضعة ويثست الفاطمة؛ لأنه إذا فطم عنها

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الامارة،

باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، رقم

١٨٤٧.

(٣) رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين

٤٤/١.

وعزل منها وكان قد ذاق لذة الإمارة بما فيها من جاه ونفاذ الأمر وغير ذلك، ربما لا يصبر الضعيف على ألم الفطام، فيداهن ويترخص، ويبيع من دينه ما يظن أنه سيحفظ عليه ولايته وجاهه وسلطانه، فهذا من الضعيف بمكان، وهذا يمنع من الإمارة ويزجر عنها زجرًا، لأنه أفسد لدينه من الذئب الجائع إذا أرسل في زريبة الغنم.

والأحاديث في النهي عن الحرص على الإمارة كثيرة.

فعن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة، أكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها) (١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها) (٢).

قال الغزالي: «ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق، كافة عن الشهوات في

غير الولايات، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية، وأن تستحلي الجاه، وتستلذ نفاذ الأمر، فتكره العزل فيداهن خيفة من العزل، فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقليد الولاية أم لا؟ فقال القائلون: لا يجب؛ لأن هذا خوف أمر في المستقبل، وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق، وترك لذات النفس، والصحيح أن عليه الاحتراز؛ لأن النفس خداعة، مدعية للحق، واعدة للخير، فلو وعدت بالخير جزماً لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية، وإذا أظهرت التردد والامتناع عن قبول الولاية؛ لكان أهون من العزل منها بعد الشروع فيها. فالعزل مؤلم، وهو كما قيل «العزل طلاق الرجال» فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل، وتميل نفسه إلى المداينة، وإهمال الحق، وتهوي به في قعر جهنم، ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهراً (٣).

٤. تولي الضعيف القضاء.

أما القضاء فحكمه حكم الإمارة، لا ينبغي أن يتقلده الضعفاء ممن لهم تعلق بالدنيا وله في قلوبهم قيمة ووزن، فإن رأى من نفسه ذلك أو أنه لا يحظى بهذا المنصب أو الاستمرار فيه إلا بمداينة السلاطين الظلمة، وإهمال وترك بعض

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، رقم ١٦٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم ١٨٢٥.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٣١٦.

المتعلقين بهم، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه، أو لم يطيعوه، فليس له أن يتقلد القضاء، وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحق، ولا يكون خوف العزل عذرًا مرخصًا له في الإهمال أصلًا، بل إذا عزل سقطت العهدة، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله، فإن لم تسمح نفسه بذلك، فهو إذن يقضي لاتباع الهوى والشيطان، فكيف يرتقب عليه ثوابًا وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار (٣) !؟

٥. الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث لغير المؤهل.

الوعظ والفتوى والتدريس حكمه حكم الإمارة والقضاء، فمن لم يكن نيته في ذلك إلا طلب الجاه والشرف والمنزلة في قلوب الناس والأكل بالدين بأي صورة كانت، والتفاخر والتكاثر والتنافس، فينبغي أن يترك ذلك ويخالف هواه في ذلك كله إلى أن يأمن على نفسه من هذه الفتن، ويكون نيته وهمته هداية الخلق، ويقوى على ذلك.

قال الغزالي: وأما المواعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد، وكل ما يتسع بسببها الجاه، ويعظم به القدر، فأفاته أيضًا مثل آفة الولايات، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلًا، فمن لا باعث له إلا طلب

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ١٢٠.

حقوق المسلمين لأجلهم، فليس له أن يتقلد القضاء.

قال الغزالي: وأما القضاء فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة، فهو في معناها فإن كل ذي ولاية أمير، أي: له أمر نافذ، والإمارة محبوبة بالطبع، والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق، والعقاب فيه أيضًا عظيم مع العدول عن الحق.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة) (١).

وقال عليه السلام: (من استقضى فقد ذبح بغير سكين) (٢).

فحكمه حكم الإمارة، ينبغي أن يتركه الضعفاء، وكل من كانت الدنيا ولذاتها لها وزن في عينه، وليتقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، ومهما كان السلاطين ظلمة، ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم، وإهمال بعض الحقوق لأجلهم، وأجل المسلمين

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في القاضي يخطئ، رقم ٣٥٧٣.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١١٨/٢، رقم ٤٤٤٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القاضي، رقم ١٣٢٥.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١٠٦٥/٢، رقم ٦١٩٠.

الجاه والمنزلة، والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر، فينبغي أن يتركه، ويخالف الهوى فيه، إلا أن تراتض نفسه، وتقوى في الدين همته، ويأمن على نفسه الفتنة، فعند ذلك يعود إليه^(١).

ومعلوم أن السلطة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعاً، وثار القتال بين الخلق، وزال الأمن، وخربت البلاد، وتعطلت المعاش، فلم نهى عن ذلك؟ وضرب عمر رضي الله عنه أبي بن كعب لما رأى قومًا يتبعونه، وهو في ذلك يقول: أبي سيد المسلمين، وكان يقرأ عليه القرآن، فمنع من أن يتبعوه، وقال ذلك فتنة على المتبوع، ومذلة على التابع. وعمر رضي الله عنه كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه^(٢).

٦. الفتن بوجه عام أو التعلل بها أو بالأولاد ونحوهم.

قد يظن البعض أن ترك الواجبات والفرائض من أسباب النجاة من الفتن كما ترك المنافقون الغزو مع الرسول بهذه الدعوى قائلين: ﴿أَتَذُنُّ لِي وَلَا نَفَتِي﴾ فرد الله دعواهم بقوله: ﴿آلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

لذلك؛ فإن الرسول هنا يرشد إلى المبادرة بالأعمال الصالحة ويعلل ذلك

بقدم فتن كقطع الليل تدعو الإنسان للمداينة وبيع دينه بعرض من الدنيا قليل. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بادروا بالأعمال الصالحة؛ فستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً)^(٣).

ومعنى (ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض) أي: متاع وحطام من الدنيا، استئناف بياني أي: أن سبب كفره ببيع، أي: أخذه العرض في مقابلة دينه، بأن يأخذ أو يستحل مال أخيه المسلم، أو يستحل الربا والغش أو نحوه مما أجمع على تحريمه، وعلم من الدين بالضرورة^(٤).

ومن الفتن الحرص على الأولاد، والخوف عليهم من الضياع - كما يلقي الشيطان هذا في روع الإنسان أحياناً ليحزنه ويضعفه ويجنبه عن قول الحق، والصدع به - لهو من أعظم أسباب المداينة، لذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك، فعن يعلى العامري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الولد مجبنة مبخلة)^(٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم ١١٨.

(٤) دليل الفالحين ١/ ٢٩٢.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، رقم ٣٦٦٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع،

(١) المصدر السابق ٣/ ٣١٦.

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٢١.

يَقُولُ أَتَذَن لِي وَلَا تَفْتِنِي ۖ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۖ ﴿١٤﴾

يقول: إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء فلا يفتن بهن، فيحتاج إلى الاحتراز من المحذور ومجاهدة نفسه عنه. فيتعذب بذلك، أو يواقعها فيأثم. فإن من رأى الصورة الجميلة وأحبها، فإن لم يتمكن منها - إما لتحريم الشارع، وإما للعجز عنها - يعذب قلبه، وإن قدر عليها وفعل المحذور هلك. وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء.

فهذا وجه قول: ﴿وَلَا تَفْتِنِي﴾ فقال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ يقول: إن نفس إعراضه عن الجهاد الواجب، ونكوله عنه، وضعف إيمانه، ومرض قلبه. الذي زين له ترك الجهاد: فتنة عظيمة قد سقط فيها فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟ والله تعالى يقول: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ هَلْ تَتُوبُونَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة، فهو في الفتنة ساقط، لما وقع فيه من ريب قلبه، ومرض فؤاده، وترك ما أمره الله به من الجهاد.

وينقسم الناس أمام الأمر بالمعروف على قسمين كما يوضحهما شيخ الإسلام قائلًا: فتدبر هذا، فإنه مقام خطر، والناس فيه

حين بين لنا أن الولد مجبنة، فاحذر أن تداهن من أجله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

ولما كان في الأمر بالمعروف؛ والنهي عن المنكر؛ والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يتعرض به المرء للفتنة، صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة. كما قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذَن لِي وَلَا تَفْتِنِي ۖ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

وقد ذكر أهل التفسير أنها نزلت في الجذ بن قيس لما أمره النبي صلى الله عليه وسلم بالتجهز لغزو الروم، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، إني رجل لا أصبر على النساء، وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر، فأذن لي، ولا تفتني^(١).

وهذا الجذ هو الذي تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة، واستتر بجمال أحمر. وجاء فيه الحديث: (كلهم مغفور له، إلا صاحب الجمل الأحمر)^(٢).

فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ

١/٤٠٠، رقم ١٩٨٩.

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٣/٤٤٣ إلى ابن المنذر والطبراني وغيرهما عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم ٢٧٨٠.

على قسمين:

قسم يأمرهم وينهون ويقاثلون طلباً لإزالة الفتنة كما زعموا، ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة، كالمقاتلين في الفتن الواقعة بين الأمة مثل الخوارج.

وأقوام ينكرون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، لئلا يفتنوا، وهم قد سقطوا في الفتنة. وهذه الفتنة المذكورة في سورة «براءة» دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة، فإنها سبب نزول الآية. وهذه حال كثير من المتدنية، يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي، وجهاد، يكون به الدين كله لله. وتكون كلمة الله هي العليا، لئلا يفتنوا بجنس الشهوات، وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منها. وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب من الأمر وترك المحذور. والقيام بالواجب وترك المحذور متلازمان، لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعاً أو تركهما جميعاً^(١).

٧. الصداقة والصحبة في غير الله ومرضاته.

إن الصداقة والصحبة إذا كانت على غير الله وفي غير مرضاته يدخل على دين

المرء من الفساد بسببها ما لا يعلمه إلا الله، ذلك لأنهم ما صاحبه إلا ليعاونهم على أغراضهم وهم يقصدون بذلك إفساد دينه، وإن لم يفعل انقلبوا عليه أعداء، عداوة تضاعف عداوة أعدائه؛ لأنهم شاهدوا منه ما لم يشاهده أعداؤه، وإن لم يحب مفارقتهم احتاج إلى مدهاتهم ومساعدتهم على ما يريدون وإن كان فيه فساد دينه.

وفيمن يحب صاحب «بدعة» لكونه داعية إلى تلك البدعة يحوجه إلى أن ينصر الباطل الذي يعلم أنه باطل وإلا عاداه، ولهذا صار علماء الكفار وأهل البدع مع علمهم بأنهم على الباطل ينصرون ذلك الباطل: لأجل الأتباع والمحيين ويعادون أهل الحق ويهجون طريقهم، فمن أحب غير الله ووالى غيره كره محب الله ووليه، ومن أحب أحداً لغير الله كان ضرر أصدقائه عليه أعظم من ضرر أعدائه: فإن أعداءه غايتهم أن يحولوا بينه وبين هذا المحبوب الدنيوي، والحيلولة بينه وبين رحمة في حقه، وأصدقائه يساعدونه على نفي تلك الرحمة وذهابها عنه، فأبي صداقة هذه؟! ويحبون بقاء ذلك المحبوب ليستعملوه في أغراضهم وفيما يحبونه وكلاهما ضرر عليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ تَبَرَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية ص ٦٧ - ٧٠.

شرهم أو مثله.

قال شيخ الإسلام^(٣): «التوحيد ضد الشرك فإذا قام العبد بالتوحيد الذي هو حق الله فعبدته لا يشرك به شيئاً كان موحداً، ومن توحيد الله وعبادته؛ التوكل عليه، والرجاء له والخوف منه، فهذا يخلص به العبد من الشرك وإعطاء الناس حقوقهم، وترك العدوان عليهم يخلص به العبد من ظلمهم ومن الشرك بهم، ويطاعة ربه واجتناب معصيته يخلص العبد من ظلم نفسه، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين)^(٤).

فالنصفان يعود نفعهما إلى العبد والله يحب النصفين، ويحب أن يعبدوه. وما يعطيه الله العبد من الإعانة والهداية هو من فضله وإحسانه وهو وسيلة إلى ذلك المحبوب وهو إنما يحبه لكونه طريقاً إلى عبادته والعبد يطلب ما يحتاج أولاً وهو محتاج إلى الإعانة على العبادة وإلى الهداية إلى الصراط المستقيم.

ثم إذا طلب العبادة: فإنما يطلبها من حيث هي نافعة له محصلة لسعادته محصنة له من عذاب ربه فلا يطلب العبد قط إلا ما فيه حظ له وإن كان الرب يحب ذلك فهو

الأسباب ﴿البقرة: ١٦٦﴾^(١).

قال الفضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد: هي المودات التي كانت لغير الله، والوصلات التي كانت بينهم في الدنيا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَتَيْنَاكَ بِكُرَّةٍ فَنَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

فالأعمال التي أراهم الله حسرات عليهم: هي الأعمال التي يفعلها بعضهم مع بعض في الدنيا وكانت لغير الله، ومنها الموالاة والصحبة والمحبة لغير الله. فالخير كله في أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٢).

٨. الخوف من الناس وعدم الخوف من الله.

اعلم أن من خاف الله تعالى في الناس كان محسناً إلى الناس وإلى نفسه لأن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم ويكفهم عن ظلمهم، ومن خاف الناس ولم يخف الله فهذا ظالم للناس ولنفسه لأنه إذا خافهم دون الله تعالى احتاج إلى أن يدفع شرهم عنه بكل وجه، إما بمدايحتهم ومراءاتهم، وإما بمقابلتهم بشيء من الشر أعظم من

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

وانظر: التقيّة والمداينة والمداراة في القرآن الكريم ص ٣٣٢.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٥٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم ٣٩٥.

يطلبه من حيث هو ملائم له فمن عبد الله لا يشرك به شيئاً: أحبه وأثابه فيحصل للعبد ما يحبه من النعم تبعاً لمحبوب الرب. أ.هـ

ثانياً: صور من المداهنة المحرمة:

١. الدخول على الظلمة توقيراً أو إعانة ومحبة.

اعتبر السلف الصالح الدخول على الظلمة وتوقيرهم والثناء عليهم ومحبتهم، نوعاً من الركون والمداهنة لهم، واستدلوا لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٥٢﴾ [المائدة: ٢].

وقوله: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمِمَّا كَسَبَ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وما ثبت في «الصحاحين» عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر قال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم، ثم قنع رأسه، وأسرع السير، حتى اجتاز الوادي)^(١).

قال ابن حجر: ووقع عند ابن أبي شيبة من طريق أبي الشعثاء قال: دخل قوم على ابن عمر فوقعوا في يزيد بن معاوية فقال:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإلى ثمود أخاهم صالحاً)، رقم ٣٣٨٠.

«أتقولون هذا في وجوههم؟ قالوا: بل نمدحهم ونثني عليهم» وفي رواية عروة بن الزبير عن الحارث بن أبي أسامة والبيهقي قال: «أتيت ابن عمر فقلت: إنا نجلس إلى أئمتنا هؤلاء فيتكلمون في شيء نعلم أن الحق غيره فنصدقهم، فقال: كنا نعد هذا نفاقاً، فلا أدري كيف هو عندكم؟» لفظ البيهقي في رواية الحارث «يا أبا عبد الرحمن، إنا ندخل على الإمام يقضي بالقضاء نراه جوراً فنقول: تقبل الله، فقال: إنا نحن معشر محمد» فذكر نحوه. اهـ (٢).

وقد قرر أهل العلم أن الرجل إن كان مستغنياً عن الدخول على من يضطره الحال إلى الثناء عليه فدخل وأثنى عليه بغير ما يعلم، كان نفاقاً أما إن اضطر إلى الدخول على ذي قوة، لا يخلص من بأسه إلا أن يسمعه شيئاً من الإطراء فهو سعة من طريقه بمقدار ما يخلص من بأسه، ولا تلحقه هذه الحالة الشاذة بزمرة المداهنيين ومما يحكى في هذا الإطار ما حصل حين انهزم جيش السلطان فرج بن برقوق أمام جيش الطاغية تيمورلنك، ووقع طائفة من العلماء في أسر الطاغية، ومن هذه الطائفة ابن خلدون، فكان من هذا الفيلسوف أن تقدم إلى تيمورلنك، وقال فيما حادثه به: «إني ألقت كتاباً في تاريخ العالم، وحليته بذكرك، وما أسفي إلا

(٢) انظر: فتح الباري ١٣/١٨٢.

يرائي بعمله ويرى للناس خشوعاً واستكانة ويوهمهم أنه يخشى الله حتى يكرموه وليس في الحقيقة كذلك كما يظهر.

وقال النووي في توجيه الحديث: سببه ظاهر؛ لأنه نفاق محض وكذب وخداع وتحيل على اطلاعه على أسرار الطائفتين، وهو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها ويظهر لها أنه منها في خير أو شر وهي مداهنة محرمة ثم ذكر الحديث بعد ذلك وبوب عليه «باب: ذم ذي الوجهين وتحريم فعله» قال: والمراد من يأتي كل طائفة ويظهر أنه منهم ومخالف للآخرين مبغض فإن أتى كل طائفة بالإصلاح ونحوه فمحمود.

قال الأستاذ محمد خضر حسين: «ومن أسوأ ما يفعل المداهن أن يلاقي الرجلين بينهما عداوة، فيظهر لكل واحد منهما الرضا عن معاداته لصاحبه ويوافق على دعوى أنه الحق، وصاحبه هو المبطل، وفي مثل هذا ورد قوله صلى الله عليه وسلم: (تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه)»^(١).

فيتخذ الرجل وجهين متى كان يطمع إلى ما في أيدي الناس من متاع، أو كان يطمع في إرضاء طوائف على تباعد ما بينهم من نزعات، وعلى شدة ما بينهم من اختلاف، والعبور إلى النفع على جسر من المداهنة،

(٣) سبق تخريجه قريباً.

على هذا الكتاب الذي أنفقت عمري فيه، وقد تركته بمصر، وإن عمري الماضي ذهب ضياعاً، حيث لم يكن في خدمتك، وتحت ظل دولتك، والآن أذهب فأتي بهذا الكتاب، وأرجع سريعاً، حتى أموت في خدمتك، فأطلق سبيله، فقدم مصر، ولم يعد إليه»^(١).

٢. كلام ذي الوجهين واللسانين.

ومن صور المداهنة بل من أسوأها أن يلقي المداهن الرجلين المتعادين كلاً منهما على حدة فيظهر لكل واحد منهما الرضا عن موقفه من عداوته للآخر، وأنه هو المحق والآخر هو المخطئ، والأمر لا شك على خلاف فأحدهما المخطئ والآخر المصيب، مع ذلك قد صوب مسلك هذا المخطئ وخطأ مسلك المصيب، وهذه مداهنة محرمة.

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه)»^(٢).

قال ابن عبد البر: هذا حديث ظاهره كباطنه وباطنه كظاهره في البيان عن ذم من هذه حاله، وقد تأوله قوم على أنه الذي

(١) انظر: رسائل الإصلاح، محمد الخضير حسين ص ١٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب ما يكره من ثناء السلطان، رقم ٧١٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب ذم ذي الوجهين وتحريم فعله، رقم ٢٥٢٦.

الإسلام فبين عليه الصلاة والسلام ليعرف ولا يغتر به وتألفه رجاء صحة إيمانه وقد كان منه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعده ما دل على ضعف إيمانه وارتد مع المرتدين وحيء به أسيرًا إلى أبي بكر رضي الله عنه (٣).

٣. إيثار رضا الخلق على رضا الخالق سبحانه وتعالى.

ومن صور المداينة: إيثار رضا الخلق على رضا الله تعالى، وفي هذا سخط الله وسخط الناس.

وفي حديث عائشة مرفوعاً: (من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس) (٤).

لهذا قيل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله عنه إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم، وهو عند رأسه ليومئ إليه، فقال الشافعي: سبحان الله! أيشك في هذا؟ أبو يعقوب البويطي، فانكسر لها محمد، ومال أصحابه إلى البويطي، مع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه كله، لكن كان البويطي

يحرم صاحبه من أعز متاع هو الصدق، بعد أن يحرمه من أطيب لذة هي ارتياح الضمير، ومن كان حريصاً على أن يكون صديق الطوائف المتباينة، فإن الطيب منهم يأبى أن يلوث صدره بصداقة من يتملق الخبيث (١).

فائدة:

الجمع بين هذه الصورة وقوله صلى الله عليه وسلم: (بئس أخو العشرة):

قال العراقي: (فإن قلت): كيف الجمع بين هذا الحديث وبين الحديث الآخر الثابت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: (أن رجلاً استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ائذنوا له فبئس أخو العشرة) فلما دخل ألان له القول فقلت: يا رسول الله، قلت له الذي قلت ثم ألنت له القول؟! قال: (يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه) (٢).

قلت: لا منافاة بينهما فإنه عليه الصلاة والسلام لم يثن عليه في وجهه ولا قال كلاماً يضاد ما قال له في حقه في غيته، إنما تألفه بشيء من الدنيا مع لين الكلام له، وإنما فعل ذلك تألفاً له ولأمثاله على الإسلام ولم يكن أسلم في الباطن حيثئذ، وإن كان قد أظهر

(٣) تيسير المجيد شرح تقريب الأسانيد، عبد المنعم إبراهيم ١٧٦/٣.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، آخر باب، ٦٠٩/٤، رقم ٢٤١٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١٠٥٢/٢، رقم ٦٠٩٧.

(١) رسائل الإصلاح ص ١٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً، رقم ٦٠٣٢.

أهل الإيمان ونصرتهم، وقمع أهل الباطل والبغي والفساد، وكسر شوكتهم، وقد أخذ بهذا المبدأ عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز في رسالته التي بعث بها إلى أمراء بعض الجهات التابعة له قال فيها: (بلغنا خبر أن بعض الأمراء متسلط على أهل الدين بأمور ظاهرها حق وباطنها باطل، ولا يفعل هذا أمير مع أهل الدين، فادعه يوماً واحداً في الإمارة، فكل يأخذ حذره، ويبدل ما كان عليه، ومضى ما فيه الكفاية) (٢).

٤. مدهانة الكفار واليهود والنصارى.

قال تعالى: ﴿لَا يَخْذِبُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْقُوَ مِنْهُمْ نَفْسًا وَيُحَذِّرَكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ٢٨).

ومن صور المدهانة أيضاً موالاة الكفار ومباطنتهم سواء بمودة القلب أو بنصره أو بغير ذلك.

قال البغوي: نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غاليين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان، رفعاً عن نفسه، من غير أن يستحل دمًا حرامًا، أو مالًا حرامًا، أو

أفضل وأقرب إلى الزهد والورع، فنصح الشافعي لله وللمسلمين، وترك المدهانة، ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى (١). ومن إثارة رضا الخلق: التنازل عن واجب من واجبات الدين من أجل الوظائف.

ومثال ذلك أن يتقدم شخص ما إلى وظيفة معينة فيشترطون عليه التنازل عن بعض أمور الدين التي لا ينبغي التنازل عنها من أجل العمل، فإن أجاب فهذه مدهانة وترخص، وبذل للدين من أجل عرض دنيوي، وإن ثبته الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وبقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

فسوف يرزقه من حيث لا يحتسب، ويربح الدنيا والآخرة، وإلا فسيخسر مع المدهانة الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

ومن ذلك أيضاً مدهانة الحكام لأهل الباطل.

وتحدث هذه المدهانة في الواقع في كل نواحي الحياة، في الوظائف والمدارس، وغير ذلك من نواحي الحياة، وكذلك مدهانة الحكام لأهل الباطل والبغي والفساد. فالحاكم المسلم يجب عليه موالاة

(٢) الموالاة والمعاداة، محماس الجلعود ١١٢/٢.

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٨٠.

يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل، وسلامة النية قال تعالى: ﴿لَا مَنَ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

ثم هذه رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم^(١).

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْجُدُوا لِلْجُودِ وَالْفَصْرَةِ أُولَئِكَ﴾ [المائدة: ٥١].

وفي ظلال القرآن^(٢): «إنه لا يجتمع في قلب واحد حقيقة الإيمان بالله وموالاته أعدائه الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون».

ومن ثم جاء هذا التحذير الشديد، وهذا التقرير الحاسم بخروج المسلم من إسلامه إذا هو والى من لا يرتضي أن يحكم كتاب الله في الحياة، سواء كانت الموالات بمودة القلب، أو بنصره، أو باستنصاره سواء.

قال تعالى: ﴿لَا يَتَخَذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْقُوا مِنْهُمْ نَفْسًا وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

هكذا ليس من الله في شيء. لا في صلاة ولا نسبة، ولا دين ولا عقيدة، ولا رابطة ولا ولاية فهو بعيد عن الله، منقطع الصلة تمامًا

في كل شيء تكون في الصلوات. ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات ولكنها تقية اللسان لا ولاء القلب ولا ولاء العمل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان»^(٣).

فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر -والكافر هو الذي لا يرضى بتحكيم كتاب الله في الحياة على الإطلاق، كما يدل السياق هنا ضمناً وفي موضع آخر من السورة تصريحاً - كما أنه ليس من التقية المرخص بها أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية. فما يجوز هذا الخداع على الله! ولما كان الأمر في هذه الحالة متروكاً للضمائر ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب، فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة الله وغضبه في صورة عجيبة من التعبير حقاً:

﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْقُوا مِنْهُمْ نَفْسًا وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُورِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٤٩.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٨٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٠.

لَفَسِقُونَ ﴿٤٩﴾ [المائدة: ٤٩].

٥. التحاكم لحكم الجاهلية وباغي هذا التحاكم مداهن.

والمعنى: وأن احكم بينهم بما أنزل الله إليك يا محمد من الكتاب ولا تتبع أهواءهم. أي: ولا تتبع أهواء اليهود الذين احتكموا إليك في قتلهم وفاجرهم، وأمر منه له بلزوم العمل بكتابه الذي أنزله إليه. واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك أي: احذريا محمد هؤلاء اليهود الذين جاءوك محتكمين إليك أن يفتنوك، فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك من حكم كتابه، فيحملوك على ترك العمل به واتباع أهوائهم. فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم.

أي: فإن تولى هؤلاء اليهود الذين اختصموا إليك عنك، فتركوا العمل بما حكمت به عليهم، وقضيت فيهم، فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، أي: فاعلم أنهم لم يتولوا عن الرضا بحكمك وقد قضيت بالحق إلا من أجل أن الله يريد أن يتعجل عقوبتهم في عاجل الدنيا ببعض ما قد سلف من ذنوبهم. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (١).

٦. التباطؤ عن دفع المنكر والنهي عنه.

ويتمثل ذلك في حديث النعمان بن

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٤٣ بتصرف.

بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها؛ كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً) (٢).

وهذا مثلٌ بليغٌ جداً، فهو يبين أن المصلحة مشتركة بين الجميع، وأن سلامة المؤمنين كلٌ لا يتجزأ، فإذا أخطأ بعضهم انسحب هذا الخطأ على الباقيين. والتشبيه التمثيلي في قوله: (مثل القائم على حدود الله) إلخ، تشبيه معقول بمحسوس؛ حيث شبهت فيه الهيئة الحاصلة من قيام المسلمين بواجبهم في تغيير المنكر بالهيئة الحاصلة من قيام أهل السفينة بمنع من يريد خرقها من الإقدام على ما يريد، كما شبهت الهيئة الحاصلة من التقاعس عن تغيير المنكر بحال أهل السفينة إن تركوا من يريد خرقها يفعل ما يشاء. ووجه الشبه هنا صورة متزعزعة من متعدد؛ وهي متزعزعة في الحالة الأولى من هيئة النجاة المترتبة على قيام قوم بما يجب عليهم، وفي الحالة

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم ٢٤٩٣.

يقول سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده) (٣).

٧. متابعة بعض المتصدرين لأهواء ذوي السلطان، أو طلباً لتحصيل مال، أو رضا صاحب أو قريب، أو نصرة لولاءات حزبية، أو رغبة في إرضاء مرهوب أو مرغوب.

ومتى اتصف الداعية بهذا الوصف فسدت دعوته وسقطت من أعين الناس وجاهته، وظهرت آثار مداهنته من خلال فتاويه وأقواله وأعماله.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن حبنكه بعض أفعال هؤلاء وأمثالهم ممن يتبعون أهواءهم فذكر من أعمالهم:

❁ ومنها: لي أعناق النصوص، وتفسيرها تفسيرات باطلات لتزيين وتدعيم الفتاوى المخالفة لحكم الله عز وجل.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، رقم ٢١٦٨.

قال الترمذي: صحيح.
وصححه اللبناني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٥٦٤.

الثانية من هيئة الهلاك الناجم عن تقصيرهم في ما يجب عليهم؛ فكما أن أهل السفينة سينجون إن أخذوا على يد من يريد خرقها، فإن النجاة ستكون مصير الجميع في مجتمع يأخذ أهله على يد العابثين، وكما أن الغرق سيكون مصير أهل السفينة إن تركوا مريد الخرق يفعل ما يريد فإن مجتمع المداهنيين الساكتين عن أهل المنكر سيؤول إلى هلاك محتم (١).

كما يبين حال الناس في المجتمع وأنه لا يخلو من وجود بعض صور المنكر والفساد التي يقدم عليها ضعاف الإيمان، وقد يلتمس بعضهم لنفسه مبرراً في ما يفعل كأن يقول هذه حرية شخصية، وأنا حر أصنع في ملكي ما أشاء، فإن قام أهل الرشد بواجبهم في إنكار هذه المنكرات والأخذ على أيدي الظالمين صلح المجتمع ونجا الجميع من غضب الله عز وجل، وأما أن يتقاعسوا عن هذا الواجب وتغلبت كلمة المداهنيين فإن العقوبة الإلهية تعم الجميع، وتلك سنة إلهية لا تتغير.

قال الحافظ: «وهكذا إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه، وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها» (٢).

(١) الإيضاح، القزويني ٢/ ٣٧١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥/ ٢٤٥.

أو بغية، ويطوي دونه التذكرة والموعظة، ابتغاء مرضاته أو حرصاً على مكانة أو غنمة ينالها لديه. ومن البلية (والكلام ما يزال لشيخ الأزهر) أن المترفين ومن ينحو نحوهم في الزيف والغرور، لا يكتفون ممن يسوقهم الزمن إلى نواديهم أن يسكت عن جهلهم، ويتركهم وشأنهم، وإنما يرضيهم منه أن يزين لهم سوء عملهم، أو يرمقهم بعين مكحولة بتبسم الاستحسان، وهو أقل شيء يستحق به في نظرهم لقب «كيس ظريف»^(٢).

موضوعات ذات صلة:

السلم، السياسة، العلاقات الدولية،
النفاق

ومنها: إباحة بعض الأعمال الربوية المحرمة بلا شك، وإيجاد تخريجات باطلات لها إرضاء للحكام، حتى يظفر منهم بمنصب أو يظفر بثبيت فيه، أو بتيسير مصالح مادية له أو لذويه.

❁ ومنهم من يتحايل على نصوص حجاب المرأة للتهوين من أمره.

❁ ومنهم من يجعل الاشتراكية والديمقراطية من الإسلام متحايلًا باستخدام النصوص الإسلامية التي تأمر بالشورى..

❁ ومنهم من ينقض بعض أصول الدين أو فروعه، ويطلق عبارات تخرج من الإسلام إرضاء للحكام واستجابة لأهوائهم، ولما يبذلونه له من مال أو منصب أو جاه أو كلام معسول، أو تمجيد وتبجيل وتعظيم. إلى غير ذلك من تهوك في الضلالة، وعبث في أحكام الإسلام وشرائعه^(١).

وفي كتاب «الدعوة إلى الإصلاح» كتب شيخ الأزهر السابق الشيخ محمد الخضر حسين يذم أخلاق المدهنيين وأفعالهم فيقول رحمه الله: «فمن أهل العلم من يرى ذا جاه أو رياسة يهتك ستر الأدب، أو يعيث في الأرض فساداً، فيتغابى عن سفهه

(١) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حبنكة الميداني ص ٦٣٤.

(٢) رسائل الإصلاح ص ١٣٧.